/ تجربة /

عد إلى بيتك وإلاّ...

انتهت الحرب في لبنان منذ عشر سنوات...
لازمة يرددها العقلاء والمؤرخون، ولكنني غير مقتنع...
فإذا كان المتحاربون قد وضعوا البنادق جانبا والتقوا طوعا في نعيم السلطة أو غصبا في جحيم رفضها، فإن ذاكرتي لا ترحم... لا تنسى... لا تبرر.
علّمتني الحرب كل المبهمات وطبعتها في صميم مخيلتي...
سرقت براءتي باكرا... أرشدتني إلى معاني الموت فيما كان والدي يحاول إفهامي أنه مجرد نوم للحلم بالله.
علّمتني إطلاق النار فيما كان كثيرون يحاولون إرضائي ببعض المفرقعات...
جعلتني أخاف على من أحبهم فيما كان يجدر بي أن أترعرع بخوف الآخرين علي...
عرفتني على المفاهيم المعكوسة وكادت تقنعني بها...
كادت الحرب أن تقنعني بأن حامل البندقية هو المثل والمثال وليس ذاك الرجل القابع في المنزل واعظا ويناديني «بابا»... كنت أناقش والدي ولكنني ما رغبت يوما في مناقشة حامل البندقية... ما همّ إن كان يستغل تغلغلي في الملاجئ ويأمرني أن أسرق له ما خف حمله من المستودع، الذي استحال ملجأ من قذائف الباحثين عن سيادة، أو عن صلاحيات، أو عن إمارة، على حساب من باسمهم يتقاتلون.
أفهمتني الحرب ان أفلام السينما العنيفة ليست سوى صور متحركة سخيفة أمام المشاهد المتكررة التي كانت تعرض علينا مجانا... فهنا سيارات تجوب أزقتنا الضيقة وتجر خلفها على الأرض رجلاً كل ذنبه انه مختلف بأفكاره أو بانتمائه الديني عمن يقود السيارة... وهنا مجرى نهر استبدلت مياهه بالجثث المجهولة الهويات... وهناك حاجز يدقق بالسنح والهويات فينتقي من بين المارين عجوزا يشبه جدي لأمي الذي أحبه كثيرا ويستلمه حامل بندقية وينزل به ضربا وإهانات... لم أحتمل المشهد فتقدمت ممن ينتسب إلى الفئة التي لم أناقشها سابقا، وسألته عن ذنب هذا العجوز الذي يشبه جدي، فصرخ في حامل البندقية وسألني عن ديني ومذهبي، فأعلنتهما له مطمئنا إلى منطقتي الحرة، فجدد نهره لي: «يا... هذا لا يمكن أن يشبه جدك فهو ليس من ديانتك.. هيا اذهب إلى بيتك وإلا قتلتك».
ترك أمري الى حكمتي وعاد إلى المهمة الموكولة إليه بضرب الرجل الذي لم يعد يشبه جدي لأن مذهبه مختلف.
ومنذ تلك الساعة تهت أبحث عن حل دائم لما يحدث خوفا على جدي من ديانته...
وخوفي الذي يلاحقني لا يسمح لي بأن أمحو المشاهد من ذاكرتي ولا يطمئنني إلى أن ابن ابني لن يبكي غدا لأنه سيشاهد شخصا شبيها بي يتعرض للتعذيب، ويحاولون إقناعه بالعكس، حين ينبئونه بأن مذهبه مختلف، ويستحق الموت في حرب الآخرين على أرضنا...

فارس خشان